﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

العلاقةُ بين اصطلاء المشركين بالنّار، والجدالِ في القرآن الّذي حوى كلَّ شيء

لمَّا تقدَّمت الآيات التي فيها مَقْنَعٌ للكفّار وغيرِهم بما دلَّت عليه من الحُجَجِ الباهرةِ، وضرْبِ اللّه تعالى الأمثالَ في ما تقدَّم من قولِه: ﴿*وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [الكهف: 32]، وقولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: 45]؛ عاد البيانُ الإلهيُّ إلى التَّنويه بهَدْي القرآن الَّذي ظهر فيه الحقُّ، فأشار في هذه الآية إلى أنَّ هذه الأمثالَ الَّتي قَرَعَتْ أسماعَهم هَديٌ من جملةِ هَدي القرآن، وأنَّها تكفيهم لو كانوا يقصدون الانتفاعَ بها، وتركوا الجدل فيها[1].

كذلك، فإنَّ الآية السّابقةَ تقرِّرُ النِّهاية الأليمةَ لأولئك الَّذين أجرموا في الدّارِ الآخرةِ، والآيةُ الَّتي نحن بصددِها ترجِعُ بالمُتلقِّينَ - ومنهم أولئك المجرمون - إلى الدّارِ الدُّنيا؛ حيث هم في فُسْحةٍ من أمرِهم، والدَّلائلُ تتكرَّرُ على أسماعهم ليلَ نهارَ، فالقرآنُ يذكرُ لهم مآلَهُم، ويُذكِّرُهم بحالِهم؛ لينزجروا عن شِرْكِهم وكفرهم، ويقارِنُ لهم أيضًا بينَ حالَيْنِ: حالِ المفاجأةِ الَّتي تحصلُ لهم عندما يرون النّار، وحالِ التَّصريفِ المذكورِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، أي: إنَّ التَّكرارَ والتَّبيينَ على وجوهٍ شتَّى مِنَ النَّظْمِ وصوَرِ المعاني وأنواعِ الدَّلائلِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَّفۡنَا﴾: (صرف) يدور معنى الكلمة على ردِّ الشَّيء من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 346.

حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، ويُقالُ لحَدَثِ الدَّهْرِ: صَرْفٌ، والجَمعُ: صُروفٌ، وسُمّي بذَلِكَ؛ لأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بالنّاسِ، أَيْ: يُقَلِّبُهُم، ويُرَدِّدُهُم من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمر، وتَصْريفُ الرّياح هو صرْفُها من حال إلى حال، ومن جهةٍ إلى جهةٍ، ومنه تصريفُ الأمور، وتصريفُ الآيات: هو الإتيانُ بها من جهاتٍ مِن إعذارٍ وإنذارٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ونحوِ ذلك، ثم يصير التَّصريفُ بمعنى التَّبْيين[1].

2) ﴿مَثَلٍ﴾: (مثل) يدور معنى الكلمة على انتصاب الشَّيءِ على سبيل المشابهَةِ، والمُمَثَّلُ: المُصوَّر على مثال غيره، يُقال: مَثُلَ الشَّيءُ، أي: انتصب وتصوَّر، والمِثْل يدلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ للشَّيْءِ، يُقال: هذا مِثْلُ هذا، أَيْ: نَظيرُهُ، والمَثَلُ المَضْروبُ مَأْخوذٌ من هَذا؛ لأَنَّهُ يُذْكَرُ موَرَّى به عَنْ مِثْلِه في المَعْنَى، فهو عبارة عن قول في شيء يُشبه قولًا في شيء آخرَ بينهما مشابهةٌ، ليُبيّن أحدُهما الآخرَ، ويُصوِّرَهُ، والمَثَل: هو القول الغريبُ السائر في الآفاق الذي يُشبه مَضْرِبُه مَوْرِدَه، ويأتي على جهة التَّبيين، وعلى هذا الوجه ما ضرَبَهُ الله تعالى من الأمثال، والمَثَلُ أعمُّ من المشابهة والمشاكلة وغيرها من الألفاظ المُتورِّدة على هذا المعنى؛ ولهذا، لمّا أراد الله تعالى نفيَ التَّشبيه من كلِّ وجهٍ؛ خصَّهُ بالذِّكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11][2].

3) ﴿جَدَلًا﴾: (جدل) يدور المعنى المحوريُّ للكلمة على امتداد الشَّيءِ الشديدِ الأثناءِ، بالتفاف بعضه على بعضٍ أو التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، ومنه جادَله: خاصمه في شدَّة ولَدَدٍ، فكأنَّ المُتجادلَيْن يَفتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وفيه معنى مراجعةِ الكلام وامتدادِه، فيُقال: جادل؛ إذا اشْتَدَّتْ خُصومَتُهُ، وخاصَمَ بما يَشْغَلُ عن ظُهورِ الحَقِّ ووُضوحِ الصَّوابِ، هَذا أَصْلُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ على لسانِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ في مُقابَلَةِ الأَدِلَّةِ لظُهورِ أَرْجَحِها، وهو مَحْمودٌ إنْ كانَ للْوُقوفِ على الحَقِّ، وإلّا فهو مَذْمومٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِر الله تعالى عن القرآن وما فيه من الآياتِ والمعاني البيِّنة، فيقول ما معناه: ولقد

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مثل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (جدل).

مثَّلنا في هذا القرآن للنّاس من كلِّ مَثَلٍ، وبيّنّا لهم ما يحتاجون إليه، ووَضَّحنا لَهُمُ الأُمورَ، وفَصَّلْناها، ووعظناهم فيه من كلِّ عظةٍ، واحتجَجْنا عليهم فيه بكلِّ حُجَّةٍ كَيْلا يَضِلّوا عن الحَقِّ، ويَخْرُجوا عن طَريقِ الهُدَى، وليتذكَّروا، فيُنيبوا، ويعبدوا ربَّهم، ويوحِّدوه، ويعتبروا، فيتَّعِظوا، ومع هذا البيانِ وهذا الفُرْقانِ كان الإنْسانُ كَثيرَ المُجادَلَةِ والمُخاصَمَةِ والمُعارَضَةِ للحَقِّ بالباطِلِ لا يُنيب إلى حقٍّ، ولا ينزجر لموعظةٍ، إلّا مَنْ هَدَى اللّه بصرَهُ لطَريقِ النَّجاةِ[1].

تنويعُ الأمثالِ في القرآن غايتُهُ تذكيرُ الإنسان مع أنَّه كثيرُ الجدل والنُّكران

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾:

جاءتِ الجملةُ معطوفةً بالواو، لمناسبة الوَصْل بينها وبَين ما قبلها؛ فإنَّه تعالى لمّا ذكر أنَّ المجرمين استحقّوا بإجرامِهم عذابَ النّار؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بالقرآن، ولم يعملوا به، أيْ: إنَّهم أجرموا وكانوا عريقين في إجرامِهم، أقامَ تعالى الحجَّة عليهم في هذه الآية، أي: استحقّوا النّارَ بسببِ إجرامِهم، مع أنَّنا صرَّفنا في هذا القرآن لهم ولكلِّ النّاس من كلِّ مَثَلٍ يحتاجون إليه؛ لتتَّضحَ الدَّلائل والمعاني الَّتي قطعتْ بها جميعُ الحجج[2]، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على الجُمَلِ السّابِقَةِ الَّتي ضُرِبَتْ فيها الأَمثالُ؛ وتكونُ مناسبةً للوصل بالواو؛ لأنَّه لمّا كانَ لهم في ذَلِكَ مَقْنَعٌ، وما لَهُم مِنْهُ مَدْفَعٌ؛ عادَ إلَى التَّنْويه بهَدْيِ القُرْآنِ عَوْدًا ناظِرًا إلَى قَوْلِه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 27]، وقَوْلِه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، فأشارَ إليهم بأَنَّ هَذِه الأَمثالَ الَّتي قَرَعَتْ أسماعَهُم هديٌ مِنْ جُملَةِ هَدْيِ القُرْآنِ

إقامةُ الحُجَّة على الكافرين بدلائلِ القرآنِ من الآيات والبراهين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.

الَّذي تَبَرَّموا مِنْهُ[1]، وبهذا يكونُ موقِعُ هذه الآيةِ جليلًا سخيًّا؛ إذْ ترجع إلى قدْرٍ كبيرٍ مِن الآياتِ قبلها، فيَقوى التَّماسكُ والتَّناسبُ بين أجزاءِ السّورةِ.

دلالةُ تتابُعِ التَّأكيد في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

أسلوبُ التَّقريرِ والتّأكيد لزجر المُنكِرين للقرآن المجيد

لمّا كان المشركون مُنكرين أنَّ القرآن من عند الله، ويلزم منه أنَّهم مُنكرون لتصريف الله فيه من كلِّ مثلٍ؛ جاء الكلامُ على طريق الخبر الإنكاريِّ بتتابعِ التَّأكيد باللّام الموطِّئة للقَسَم مع الحرف (قد)، ومَوْرِدُ التَّأكيد هوَ الفعل ﴿صَرَّفْنَا﴾ الدّالُّ على أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله ﷻ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿صَرَّفْنَا﴾:

تأكيدُ أنَّ القرآنَ لا عِـوَجَ فيـهِ، وأنَّـه حُجَّة على الخَلائق

آثَرَ التَّنزيلُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّصريفِ في قولِه: ﴿صَرَّفْنَا﴾ معنًى وصيغةً؛ نظرًا إلى وصفِ (الكتابِ) في مطلعِ السّورةِ بأنَّه لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف: 1]، "أيْ: شيئًا مِن عِوَجٍ؛ بل هوَ مستقيمٌ في جميعِ معانيه مِن غيرِ اختلافٍ أصلًا، هادٍ إلى كلِّ صوابٍ؛ لأنَّ العِوَجَ بالكَسْرِ: فقْدُ الاستقامةِ في المعاني، وبالفتح: فقدُها في الأعيان"[3]، ومعَ هذا التَّصريفِ الذي يقتضي كثرةَ المعاني - وهذه الكثرةُ دلالةُ صيغة فعَّلَ - يمكن حصولُ شيءٍ مِن عِوَجٍ، لكنَّ القرآنَ معَ هذا التَّصريفِ ومقتضاهُ مِن الكثرةِ لا عِوَجَ فيه، فالتَّعبيرُ بالتَّصريفِ راجِعٌ إلى قوله تعالى في مطلع السورةِ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف: 1]، وهو مِن تمامِه، ثم إذا قرَنَّا بينَ هذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وما قبلَها؛ فهِمنا أنَّ القرآنَ كان دليلًا وهاديًا قويًّا لهم ولغيرِهم مِن النّاسِ، بما فيه مِن هذا التَّصريفِ الذي يكونُ معَه تمامُ الإبانةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 204.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 442.

عن المطلوبِ وكمالها، مع الاقتناعِ الحاصلِ نتيجة تنوُّعِ المعاني والاستدلالاتِ، ويكونُ حُجَّةً قويَّةً عليهم يومَ القيامةِ حين يرون النّار، فتأمَّلْ كيف تعلَّقَتِ الآيةُ بما قبلَها وبمطلعِ سورتِها مِن طريقِ جوهرِ معانيها، وهو معنى التَّصريف.

دلالةُ لفظ ﴿صَرَّفْنَا﴾ بين التَّصريح والكناية:

تصريفُ معاني القرآنِ من أسرارِ الإعجازِ وسموِّ البيان

لمّا كان التَّصريفُ بمعنى صَرْفِ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ ومن جهةٍ إلى جهةٍ، ليفيد معنى التَّكرير؛ عُبِّرَ بـ﴿صَرَّفْنَا﴾ للإشعار بعرض الأمر على وجوهٍ مختلفةٍ، حتّى يَظهَرَ ظهورًا تامًّا، فكان ﴿صَرَّفْنَا﴾ بمعنى: (كرَّرنا في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ بأنواعِ العباراتِ والأساليب اللُّغويَّة مع تنوُّع المعاني، فتارةً بالحججِ والدَّلائل، وتارةً بالعِبَرِ والأمثال، وتارةً بالقصصِ والأخبارِ)، وإنَّما يقع التَّكرير فيما يُعتنى بشأنِه، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ما في القرآن مُهمٌّ ومُعتنًى به، ولمّا كان تصريفُ القولِ في آياتِ القرآن وتنوُّع وجوهه؛ يلزم منه التَّبْيينُ بمُخْتَلِفِ البَيانِ ومُتَنَوِّعِه؛ جاز أن يكون الكلامُ على طريق الكنايةِ، والمعنى: (لقد بيَّنّا في هذا القرآن بمختلف أنواعِ النَّظم ما يحتاجُهُ النّاس في دنياهم من العقائدِ والأحكام والمعاملاتِ، والمُحكَم، والمُتَشابه، والحدود، وغير ذلك)، وهكذا كان التَّصريف مِن أسرار الإعجاز، وهو أعلى درجات البلاغةِ وأسرارِها[1].

فائدةُ إسنادِ الفعل ﴿صَرَّفْنَا﴾ إلى ضمير العَظَمَة:

تصريفُ الآيات والأمثال في القرآن، طريقٌ لإدراكِ عَظَمَتِه وحُجّيَّتِه

أفادَ إسنادُ الفعل إلى ضمير العَظَمة، أنَّ مثلَ هذا التَّصريفِ لا يكون إلّا من المَلِكِ الواحدِ الأحد، وأنَّه تصريفٌ عظيم يُعرَفُ به شأنُ القرآنِ وإعجازُه، وضميرُ العَظَمةِ يَرْشَحُ على التَّصريفِ معنى العظمةِ؛ لتعريفِ المجرمينَ المذكورينَ في الآيةِ السّابقةِ وغيرِهم

(1) البَغَوي، معالم التنزيل: 5/ 95، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1127، وأبو حفص النَّسَفي، التّيسير في التفسير: 10/ 98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 109.

بأنَّهم ليس لهم حُجَّةٌ في غيابِ جلالِ اللّه وجمالِه مِن نفوسِهم، فإذا كانَ الشِّركُ وتوابعُه قد غيَّبَ ذلك مِن فطرتِهم؛ فإنَّ في القرآنِ - الذي كان يُتْلَى عليهم في الدُّنيا - تلكَ العظمةَ الإلهيَّةَ الربَّانيَّةَ، وهي موجودةٌ وظاهرةٌ فيه بقوَّةٍ، ومِن شأنِها أنْ تطرُدَ مِنهم الشِّرْكَ والشَّريكَ، وتزجُرَهم عن ذلك كلِّه، وإذا كانَ مطلعُ السّورةِ مؤسِّسًا لوصفِ القرآنِ - بما يُفيدُ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ، وكانَ التَّصريفُ مِن تمامِ وصفِه بأنَّه لا عِوجَ فيه، وبأنَّه قيِّمٌ ومُهيمِنٌ على الكتبِ السّابقةِ، وهذا يقتضي تميُّزَه عنها بذلك التَّصريفِ وغيرِه - كانَ مِن البلاغةِ والتَّناسُبِ إسنادُه إلى ما هو نَصٌّ في العظمةِ، وهو الضَّميرُ (نا).

بلاغةُ الإيجازِ بحذف مفعولِ ﴿صَرَّفْنَا﴾:

بيانُ إفادةِ عمومِ التَّصريفِ، أو تأكيدُ لصوقِ الوصفِ بالقرآنِ الكريمِ

لمّا كان الفعلُ ﴿صَرَّفْنَا﴾ متعدّيًا في أصلِه؛ كان حذفُ المفعولِ لإفادةِ عمومِ المُصرَّفِ، والمعنى: صَرَّفنا المواعظَ فيه، وصرّفنا ضروبَ القولِ فيه من الأمثالِ والعِبَرِ...، ممّا يوجب الاعتبارَ به والتَّفكُّرَ فيه، وصرَّفنا القولَ على وجوهٍ كثيرةٍ من النَّظمِ فيه، فيأتي الكلامُ على الإثباتِ والنَّفي والأمرِ والنَّهي وغيرِها، وصرَّفنا هذه المعانيَ، وكرَّرناها بوجوهٍ من التَّقريرِ، وقد يكون المرادُ بحذفِ المفعولِ تنزيلَ الفعلِ ﴿صَرَّفْنَا﴾ منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، فلم يُقدَّرْ له مفعولٌ، فيكون التَّصريفُ وصفًا لازمًا للقرآنِ بمعنى البيانِ، ويكون من دلائلِ إعجازِه، والتَّقديرُ: (ولقد جاء البيانُ منّا في هذا القرآنِ، ولا يأتي منّا إلّا البيانُ في القرآنِ)[1]، كما يُحتملُ أنَّ المفعولَ قد حُذِفَ على كلٍّ؛ إمعانًا في توكيدِ أنَّ القرآنَ لا عوجَ فيه، وأنَّه قيِّمٌ، وإمعانًا في إقامةِ الحُجَّةِ على المجرمينَ ومَن في سِلْكِهم في الدُّنيا والآخرةِ، والوجهُ الثّاني أعمُّ مِن الوجهِ الأوَّلِ؛ فهو يفيدُه وزيادةً، وإثباتُ الفعلِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 340، وأبو حفص النَّسَفيّ، التّيسير في التفسير: 10/ 98، والزمخشري، الكشاف: 2/ 669، والعُكْبَري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 823، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 52، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 256.

في نفسِه للفاعلِ - وهو اللّه (تعالى) - يلزمُ منه إثباتُه لكلامِه، وهو القرآنُ، أيْ: إنَّ مِن شأنِ القرآنِ التَّصريفَ المذكورَ، كأنَّ التَّصريفَ شاملٌ كلَّ معانيه، وهذا العمومُ يتشاكَلُ، ويتنادَى مع العمومِ في نفي العوجِ عن القرآنِ، ومعَه في إثباتِ عكسِه، مِن الاستقامةِ في جميعِ معانيه، وذلك في مطلعِ السّورةِ.

توجيهُ المُتشابه اللّفظيّ بين هذه الآية وآية الإسراء (89):

مجيءُ التَّقديم والتَّأخير كلٌّ على بابِه؛ ليكونَ لكلِّ لفظٍ موضعُهُ في البيان

في هذه السّورة تقدَّم قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، وورد في آية الإسراءِ تقديمُ قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ على قوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ فقال عزَّ من قائلٍ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: 89]، والتَّقديمُ في آية الكهف هو على الأصلِ؛ لأنَّ ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ بمنزلة المفعول للفعل ﴿صَرَّفْنَا﴾، و﴿لِلنَّاسِ﴾ تعليلٌ بمنزلة المفعول لأجله، فجاء الكلامُ على مقتضى الظّاهر، ولمّا كانت آيةُ الإسراء في سياق التَّحدّي بمعجزة القرآن وقيام الحجَّةِ به؛ قدَّم ﴿لِلنَّاسِ﴾ الَّذي هو بمنزلة المفعولِ لأجله على ما هو بمنزلة المفعول؛ ليكون على خلاف مقتضى الظّاهر على عادةِ الكلام العربيِّ في تقديم ما حقُّهُ التَّأخير فيما تكون العنايةُ به أتمَّ وأهمَّ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ لتحدّيهم ولإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وأيضًا لو لم يقدِّم ﴿لِلنَّاسِ﴾ في آية الإسراء؛ لَثَقُلَ التَّكرُّر فيما تقارَب من الألفاظ، فلو قيل: (ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلِّ مثلٍ، فأبى أكثرُ النّاس إلّا كفورًا)؛ لجاء لفظُ النّاس كأنَّه قد أُعيد متَّصلًا، وهو ثقيلٌ في الكلامِ، فقدَّم المجرور؛ لينتظم الكلامُ، ويستحكم الفصلُ، فلا يُستثقل[1].

وقد يُناسبُ مطلعُ السّورةِ سببَ نزولِ بعضِ آياتِها على الجملةِ، كما في سورةِ الكهفِ؛ فقد دارَ مطلعُها حولَ وصفِ الكتابِ الكريم، وتأسَّسَ

(1) الكرماني، أسرار التكرار: 2/ 311 - 312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 204.

على ذلكَ وجوهٌ مِنَ النَّظْمِ داخِلَ السّورةِ، ومنها تقديمُ ذِكْرِ القرآنِ على ذِكْرِ النّاسِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، يقول البقاعيُّ رحمه الله: "ولَمَّا كانَت هذه السّورةُ في وصفِ الكتابِ؛ فقد اقتَضَى الاهتمامُ به تقديمَهُ في قولِه تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾"[1]، فكأنَّ هذا التَّقديمَ يُلاحِظُ سببَ النُّزولِ المذكورَ؛ لمُلاحَظتِه مطلعَ السّورةِ، واللّه أعلم.

وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: 41] من دون ذِكْرِ النّاس، وجاء في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 89]، وكذلك في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾، فزيدَ في آية الإسراء وآية الكهف قَيْدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دونَ الآيَةِ [41] من الإسراء؛ لأَنَّ الآيتَيْن اللَّتَيْن فيهما قيد ﴿لِلنَّاسِ﴾ وردتا في مَقام التَّحَدّي والإعجازِ، فكان النّاسُ مَقْصودينَ به قَصْدًا أَصْليًّا مُؤمِنُهُم وكافرُهُم، ولهذا قال في الآيتَيْن: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾؛ لأنَّ الكلامَ في سياق التَّحدّي والإعجاز، وأمّا آيةُ الإسراء الَّتي لم يَرِدْ فيها قَيْدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ فإنَّها في مَقام توبيخِ المشركينَ خاصَّةً القائلين: إنَّ الملائكة بناتُ اللّه – تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا – فلمّا كانوا معلومين؛ انتفت الحاجةُ إلى ذِكْرِ قيد النّاس، فقد ورد كلٌّ من هذه الآيات على ما يناسبُ، ويلائمُ ما اتَّصلَ به[2].

بيانُ أنَّ الإعجاز يقع في بعض القرآنِ كما يقع في كلِّهِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ في شبه الجملة: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾:

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ التَّصريفَ في بعض القرآن، وليس بعامٍّ فيه، ولو قال: (ولقد صرَّفنا هذا القرآنَ)؛ لكان تصريفُ الآيات، وتكرارُ المعاني فيه، واردًا في كلِّ مواضعِ القرآن، كما أنَّه لمّا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار: 2/ 312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.

كانت الآيةُ في سياق التّحدّي وقيام الحجَّة؛ أفاد حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ الإعجاز يقع في بعضِه، كما يقع في كلِّه، وأنَّه عارضَهم في بعضِه، كما عارضَهم في جميع سورِه[1].

على أنَّ بعضَ المُفسِّرين جعلوا حرفَ الجر ﴿فِي﴾ صلةً في هذه الآية[2]، وحينئذٍ يكون التَّصريفُ واقعًا على القرآنِ كلِّه من حيثُ تنوُّعُ آياته وتنوُّعُ دلالاتِها مِن أمرٍ ونهي وخبر وإنشاء ومواعظَ وأمثالٍ وغيرِ ذلك.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

بيانُ عجزِ البشر عن معارضةِ القرآن، وإقامةُ الحُجَّة على أهل الكفران

في قولِه تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أفاد اسمُ الإشارة (ذا) تمييزَ القرآن أكملَ تمييزٍ؛ لأنَّه في سياق بيانِ إعجازِه وظهور حجَّتِه، ولمّا كان اسمُ الإشارة (ذا) للقريب، ودلَّ على أنَّه بين أيديهم، وهو قريب منهم؛ آذَنَ بشدَّة عجزِهم، وفي مجيء اسم الإشارةِ للقريب معنى التَّعجيب من حالِ الكافرين؛ لأنَّهم لم ينتفعوا منه مع قربِه منهم، وقال تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ولم يَقُلْ: (في ذا القرآن) إشارةً إلى اشتمالِ القرآنِ على ما يلفتُ النّاسَ إليه بقوَّةٍ، ويُنَبِّهُهُم إليه بشِدَّةٍ، أيْ: إلى هداياتِه وعظمتِه من مِثْل هذا التَّصريف.

دلالةُ كونِ لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدلًا:

تضافرُ البدلِ والإشارة على الإيضاح والبيانِ

لمّا جاء لفظُ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدلًا من اسم الإشارة؛ أفادَ الإيضاحَ والبيانَ، وذلك لما يدلُّ عليه مجموعُ البدلِ والمُبدَلِ منه مِن إيضاح المعنى وبيانِه، والمعنى: صرَّفنا في هذا القرآن الَّذي بين أيديكم وليس في غيرِه؛ للإشعار بعظمةِ القرآن وخَصوصيَّتِه مِن بين سائر الكتب المُنزَّلة، فلَمَّا تظاهرَ سياقُ الآيةِ على تعظيم القرآنِ؛ رجوعًا إلى سياقِ مطلعِها الدّالِّ على ذلك؛ كانَ من شأنِه التَّشويقُ إليه، ونَظْمُ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدلًا يؤدّي هذا التَّشويق.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 256، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 67.

(2) أشار ابن عرفة إلى قولٍ بأنّها زائدة، وضعّفه، يُنظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 67.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ على لفظِ (الكِتابِ):

لفظُ (القرآن) جامعٌ، ولفظُ (الكتاب) دالٌّ على الصِّحَّة والسَّلامة

لمّا كان تصريفُ القول والمواعظ والأمثال - الدّالَّةِ على اجتماع المعاني فيه - مِن أظهر مزايا إعجاز القرآن؛ اقتضى ذلك إيثارَ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هنا دون (الكِتاب)؛ لمناسبة لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ الَّذي هو علمٌ على الكِتاب المُنزَّل على سيِّدنا مُحمَّد ﷺ للسّياق، ولِما تدلُّ عليه مادَّة لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ مِن جَمعِه للمعاني، وقد ذُكِرَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1] في صدر السّورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، وبيانُه أنَّ وصف الكتاب بأنَّه غيرُ ذي عوجٍ، وأنَّه قيِّمٌ؛ يناسبه ذِكْر الكتاب؛ لملاءمةِ هذَيْن الوصفَيْن للَفظِ الكتاب، والمعنى: "أنَّه مُتَّصِفٌ بكمال أوصافِ الكتبِ مِن صحَّة المعاني والسَّلامة مِنَ الخطأ والاختلاف"[1]، كما عُبِّرَ عن كلام الله تعالى بالكتاب في مطلعِ السّورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]؛ نظرًا إلى ما سيأتي في السّورة من قصَصٍ مختلفةٍ، ألَّفَ بينها سياقُ السّورةِ ومقصودُها الأعظمُ الَّذي يسري في أثنائِها، فهي مُتشابهةٌ في هذا مُتجانِسةٌ مِن أجلِه.

دلالةُ (أل) في شبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تصريفُ الآيات للنّاس مِن دواعي التَّقريع في الأساس

(أل) في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾: جنسيَّةٌ، فيكون المُراد من النّاس العمومَ، فيشمل كلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ القُرْآنُ في سائرِ العُصورِ المُستقبَلةِ، أي: الَّذينَ يَسمعونَ القرآنَ في أزمان ما بعدَ نُزولِ تلكَ الآيةِ، ويدخل في لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ المُشركونَ دخولًا أوَّليًّا، كَما دَلَّت عليه جُملَةُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[2].

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾:

وحرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ جاء للتَّبعيض،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

فالقرآنُ الكريم بألفاظِه المُحكَمة المحصورةِ مُشتمِلٌ على أَبْعاضٍ مِنْ جميعِ أنواعِ المَثَلِ؛ فالمرادُ تبعيضُ المعاني[1].

سرُّ ذكرِ مُتعلَّق فعل التَّصريف في السّياق المنيف:

لمّا كان الكلامُ في سياق بيانِ إعجازِ القرآن، وظهورِ معانيه ووضوحِها؛ كان ذِكْرُ قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ أظهرَ في بيان الحُجَّة، فإنَّ العجزَ عن الإتيان بسورة من مثلِه أدخلُ في الإعجاز، وأَشَدُّ تَعجيزًا لمَن يَرومُ مُعارَضَتَهُ، فعَجزُهُم عَن مُعارَضَةِ سورَةٍ مِنَ القُرآنِ مَعَ كَثرَةِ أَغْراضِه عَجزٌ بَيِّنٌ مِن جِهَتَيْنِ؛ لأَنَّهُم عَجَزوا عَنِ الإتيانِ بمِثْلِه، ولَو في بَعضِ الأغراضِ[2]، ولمّا كان حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ - الَّذي هو للتَّبعيض - داخلًا على لفظ العموم ﴿كُلِّ مَثَلٍۚ﴾؛ أفاد أنَّ القرآنَ مُشتملٌ على أبعاضٍ من جميعِ أنواعِ معاني الأمثال، وذهب بعضُهم إلى أنَّ العمومَ مُستفادٌ من قوله: ﴿كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ على سبيل المبالغة، والتَّقدير: (من كلِّ مَثَلٍ يحتاجه النّاس)[3]، ولا حاجةَ إليه؛ لأنَّ المقصودَ قد دلَّ عليه قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، أيْ: لأجل حاجة النّاس؛ ليفيدَ أنَّ القرآنَ جامعٌ للمعاني الَّتي ينتفع منها النّاس في الدُّنيا والآخرة.

القرآنُ جامعٌ للمعاني الَّتي يَنتفع منها النّاس في الدّارين

فائدةُ إضافة لفظةِ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَثَلٍۚ﴾:

لمّا أضيفَ لفظُ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَثَلٍۚ﴾؛ كان أكثرَ عمومًا من أن يقول: (مِنَ الأمثال كلِّها)؛ لإفادةِ الإضافةِ التَّنصيصَ على استغراقِ كلِّ مثلٍ ممّا يحتاجه النّاس؛ حيث أُضيفت ﴿كُلِّ﴾ إلى نكرةٍ ﴿مَثَلٍۚ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَثَلٍ في القرآن مشتملٌ على معانٍ كثيرةٍ تنفعُ النّاسَ على كثرتِهم وتغايُرِهم، ولو قال: (من الأمثال

كلُّ مَثَلٍ في القرآنِ الكريم يُؤتى، مشتملٌ على معانٍ شتّى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

(3) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 225، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1257.

كلِّها)؛ لأفادت (كلّ) تأكيدَ جنسِ الأمثال لا النَّصَّ على استغراقِها، وهو خلافُ المقصود.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿مَثَلٍ﴾:

معاني القرآن في حُسنِها العجيبِ، كالمَثَلِ المدهش الغريبِ

عُبِّرَ بلفظ ﴿مَثَلٍ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّه لمّا كان المثلُ يُضربُ لكلِّ أمرٍ عجيبٍ حسنِ المَوقِعِ، يجري في الكلامِ، ويسير في البلادِ، ويتضمَّن معنًى عامًّا؛ شُبِّهت به معاني القرآن؛ للإشعار بأنَّ معانيَ القرآن في غرابتِها وحُسنِها وعمومِ معناها وتأثيرِها في النَّفسِ كالمَثَلِ، والمعنى: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للنّاسِ من كلِّ نوعٍ من المعاني التي يحتاجها النّاس[1]، فلمّا كان المثلُ ممّا يفيد عمومَ المعنى وكلّيَّتَهُ، ويدلُّ على حسنِه وغرابتِه ولطافتِه؛ أفاد أنَّ القرآن مشتملٌ على معانٍ عامَّةٍ حسنةٍ لها تأثيرٌ في النُّفوسِ بحيث تشتمل على جميع ما يحتاجه النّاس من أمور الدُّنيا والآخرة.

وإذا كانت معاني القرآنِ كالأمثالِ؛ كانَتِ استعارةُ المَثَلِ هنا توكيدًا لمعنى أنَّ القرآنَ لا عِوَجَ فيهِ، وأنَّه قيِّمٌ، وكانَ الاحتجاجُ بذلك على المجرمين المذكورينَ في السِّباقِ القريبِ أظهرَ وأقوى وأبهرَ، والمعنى: "﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أيْ: حوَّلنا الكلامَ، وطَرَقْناهُ في كلِّ وجهٍ مِن وجوه المعاني، وألْبَسْناهُ من العباراتِ الرائقةِ، والأساليبِ المتناسقةِ ما سارَ بها في غرابتِه كالمَثَلِ؛ يَقْبلُهُ كلُّ مَن يسمعُهُ، وتُضْرَبُ به آباطُ الإبلِ في سائرِ البلادِ بينَ العبادِ، فتُبَشَّرُ به قلوبُهم، وتَلْهَجُ به ألسنتُهُم"[2]، وإذا كانَ المُصرَّفُ المُكرَّرُ من معاني القرآنِ كالمَثَلِ؛ كانَ غيرُه من المعاني كالمثَلِ من باب أَوْلى.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 292، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 104، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 585، 12/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 481.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الانتفاعُ بالقرآن قائمٌ على فتح باب العمل وإغلاق بابِ الجدل

في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ جاءتِ الواوُ في مطلع الجملة حاليَّةً، وتقتضي جملة الحال محذوفًا، والمعنى: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ، فلم ينفع فيهم تصريفُ الأمثال، وجادلوا بالباطلِ[1]، والحالُ أنَّ الإنسانَ لم ينْتهِ عن الجدل في القرآن بعد هذا البيانِ الواضحِ الذي هو بيِّنٌ لكلِّ النّاس، ففي الحال معنى التَّعجيبِ ممَّن يُجادل في القرآن، ويُنكر أنَّه من عندِ اللّه تعالى، فمرَّةً يقول: إنَّه سِحر، وأخرى يقول: إنَّه شِعر، وثالثة يقول: أساطير الأولين.

دلالةُ ﴿وَكَانَ﴾ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

جدلُ الإنسانِ الكثيرِ جِبِلَّةٌ وفطرة لا فكاك له عنها

أفاد التَّعبيرُ بصيغة ﴿وَكَانَ﴾ أنَّ كثرةَ جدلِ الإنسانِ جِبِلِّيٌّ، لا ينفكُّ عنه، وأنَّه مستمرٌّ عليه[2]، وهذا لأنَّ المقصودَ بالإنسانِ الكافرُ العريقُ في الكفرِ، بدلالةِ التَّعبيرِ عن إجرامِهم بصيغةِ الاسم الدّالَّة على الثُّبوتِ والدَّوام في السِّباقِ القريبِ: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ [الكهف: 53]، "أي: العريقونَ في الإجرامِ"[3].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وفرادته في السّياق:

القرآنُ يُهذِّبُ طبائعَ المجادلين، ويسمو نهجُهُ بهم إلى علّيين

(أل) هنا لتعريف الحقيقة، ولفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أَوْسَعُ عُمومًا، من لَفْظِ (النّاس)[4]، فتُفيد العمومَ باعتبار أكثر أفراد الإنسان، أيْ: لاستغراق الأكثر، فيكونُ المُرادُ أكثرَ النّاس، أو يُحمل صدورُ الجدل من بعضِ النّاس على الكلِّ، ليكونَ من المَجاز المرسل[5].

وعُبِّرَ بالإنسانِ دونَ النّاس؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ إنسانٍ مطبوعٌ على

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 425، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 347.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 87، وإرشاد العقل السليم: 5/ 229.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 347.
(5) البَغَوي، معالم التنزيل: 5/ 181، والشربيني، فتح الرحمن: 4/ 188، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 108.

الجدل، ويدخل فيه الكافر دخولًا أوَّليًّا لجداله في القرآن الَّذي بُيِّنت آياتُه ومعانيه وحججه، فيكون جدالُه بالباطلِ؛ لقَوْلِه تَعالَى فيما يأتي: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، وفي لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ما يُفْهِمُ علَّةَ كونه أكثرَ شيء جدلًا، وهو ما نبَّهَ عَليه البقاعيُّ في قوله: "﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الّذي جُعِلَ خصيمًا، وهو آنَسُ بنفسِه جِبِلَّةً وطَبْعًا"[1].

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ﴾:

الإنسانُ أكثرُ شيء جَدَلًا وأكثر عنادًا وزللًا

لمّا أُضيف أفعلُ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى الاسم النَّكرة ﴿شَيۡءٖ﴾؛ أفاد عمومَ المفاضلة في الجدل، فيجري التَّفضيلُ على ظاهرِه، والتَّقدير: (وكان الإنسان أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منها الجدل)؛ لأنَّ ما لا يُتصوَّر منه الجدلُ لا يكون مُفضَّلًا عليه، فيكون تركيب ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ﴾ عامًّا قُصد به البعضُ ممَّن يتأتّى منه الجدلُ، فخُصَّ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ بدلالة العقلِ، والمعنى: لو فُرِضَ أيُّ شيءٍ يأتي منه الجدلُ؛ لكان الإنسانُ أكثرَ منه جدلًا[2]، ففيه مبالغةٌ في المعنى، ويُحتمل أن يكون اسمُ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾ مسلوبَ المفاضلة، فليس المُرادُ أفضليَّتَهُ على غيرِه في كثرة الجدل، وتكون نكتةُ مجيءِ صيغة اسم التَّفضيل لقَصْدِ المُبالَغَةِ في شِدَّةِ جَدَلِ الإنسانِ وجُنوحِه إلَى المُماراةِ والنِّزاعِ حَتَّى فيما تَرْكُ الجدالِ في شَأْنِه أَحْسَنُ، بحَيْثُ إنَّ شِدَّةَ الوَصْفِ فيه تُشْبِهُ تَفَوُّقَهُ في الوَصْفِ على كُلِّ مَنْ يَعْرِضُ أَنَّهُ مَوْصوفٌ به[3].

دلالةُ التَّمييزِ في قولِه: ﴿جَدَلٗا﴾:

أثرُ رفْعِ الإبهامِ وتقريرِ المعنى بطريقِ الإجمالِ والتَّفصيل

لمّا كان التَّمييزُ رافعًا للإبهام، وكان مجيئُهُ مُؤذِنًا بتوخّي الإجمالِ والتَّفصيل؛ كان المعنى: وكان الإنسانُ أكثرَ الأشياء التي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.

(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 194، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 108.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 347.

يتأتَّى منها الجدلُ إن فصَّلتَها واحدًا بعد واحد[1]، كما أنَّ في مجيء التَّمييز تأكيدًا للمعنى وتقريرًا له في أذهانِ المخاطَبين بمجيء الكلام بطريقِ الإبهام ثم الإيضاح؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيل مُبهَمٌ، ثمَّ بُيِّنَ، ورُفِعَ إبهامُهُ بذِكْر التَّمييز، وإنَّما جُعِلَ الجدلُ الوارِدُ في مقطعِ الآيةِ تمييزًا، فيكونُ هو المقصودَ بالكثرةِ المُضافةِ إلى الإنسانِ في المعنى؛ ليُقابِلَ التَّصريفَ المذكورَ في صدرِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾؛ ليَظْهَرَ امتنانُ اللّه على هذا الإنسانِ بأنْ جعَل لـ: (مرضِه، جداله) دواءً مُناسبًا له، وليُبيّنَ قُبْحَ هذا الإنسانِ وغرابةَ نفسِه وشذوذَ عقلِه وفكرِه في ترتيبِ الجدلِ على التصريفِ، فإنَّ في التصريفِ قوَّةً عظيمةً في الإبانةِ عن المطلوبِ، وفي الجدلِ شدَّةٌ وصلابةٌ في الرَّدِّ والإنكارِ، وما جرى في هذا الطريقِ من المعنى؛ لأنَّه مأخوذٌ مِنَ الجَدْلِ الذي هو الفَتْلُ، فرجَعَ آخِرُ الآيةِ على أوَّلها.

بلاغةُ الإخبارِ عن الذّات المتَّصفةِ بالجدلِ لا عن الجدالِ:

نجد في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أنَّه لَمَّا كانَ الجدلُ صادرًا مِن هذا الإنسانِ، وقد صرَّفَ اللّهُ في هذا القرآنِ مِن كلِّ مثَلٍ، كانَ صدورُه منه آيةَ قَبولِ نفسِه للجدلِ، كأنَّها أرضٌ لنباتِ الجدلِ، لا يُزْرَعُ إلّا فيها، فقد صار الجدلُ من ديدنِها وطباعِها وعاداتِها؛ فالألصقُ بذلك أن يُخْبَرَ عن الإنسانِ بأنَّه أكثرُ شيءٍ جدلًا، وجدله أكثرُ من جدلِ كلِّ مَن يتأتَّى منه الجدلُ.

دأبُ ذاتِ الإنسان الجدالُ بإلحاحٍ بالألسنة الذَّربة الفصاح

بلاغةُ التَّذييل في السّياق الجليل:

لمّا كانت الجملةُ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ على معنى العمومِ لما تضمَّنته من عمومِ لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ودلالة التَّركيب على كونِ الجدل عادةً وجِبِلَّةً للإنسانِ، وجاءت تأكيدًا لمفهوم ما تقدَّمها؛ فإنَّ المُكذِّب بأنَّ القرآنَ من عندِ اللّه - وهو

حججُ القرآنِ ظاهرةٌ جليَّةٌ، والمُكذِّبُ بها مكذِّبٌ لربِّ البريَّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، والنَّسَفي، مدارك التنزيل: 2/ 306.

الذي تبيَّنت فيه الآياتُ والدلائل للنّاس من كلِّ شيءٍ - إنَّما يكذِّب جدلًا فيه، فلمّا كانت الجملةُ كذلك؛ كانت إطنابًا بالتَّذييل، وهي جارية مجرى المَثَلِ في استقلالِها بنفسِها في إفادة المُرادِ، وفي حكايتها والتَّمثيل بها.

دلالةُ الجدَل في الآية الكريمة:

الـجَـدَلُ منه ما هو محمودٌ وما هــو مــشــؤومٌ مَذمومٌ

لمّا جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، على معنى ذمِّ الجدلِ بدلالةِ السّياق؛ أفاد أنَّ المُرادَ بالجدل جدلُ خصومةٍ بالباطلِ، ومماراةٍ بمعاندة الحقِّ بعدَ ما تبيَّن[1]، ويحتمل أن يكون المُرادُ تأكيدَ أنَّ الجدل من خُلُقِ الإنسانِ وجِبلَّتِه، فيكون العمومُ على وجهه، ليفيدَ أنَّ كُلَّ إنسانٍ في طَبْعِه الحِرْصُ على إقْناعِ المُخالِفِ بأَحَقِّيَّةِ مُعْتَقَدِه أَوْ عَمَلِه، وعلى الوجه الثّاني يكونُ مآلُ معنى الآيةِ وصْفَ الإنسانِ الكافرِ المجرمِ بالجدلِ المذمومِ؛ لأنَّ الجدلَ على الجملةِ شأنُ كلِّ إنسانٍ، أفلا يكون من وصفِ الكافرِ؛ فيكون مذمومًا؟.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدال والحِجاج والمِراء والحِوار:

الجدالُ المحمود هو القائم على الغرض السَّليم والدَّليل القويم

المقصودُ من الجدال الرُّجوعُ عن القول والاعتقاد بالمفاوضة، فهو على سبيل المنازعة والمغالبة من أحدِ الطَّرفَيْن للآخر، فإنَّ أصله من الجدل، وهو شدَّةُ الفتلِ، فكأنَّ المُتجادِلَيْن يفتل كلُّ واحد الآخرَ عن رأيه، بأنْ يلتفَّ كلٌّ على الآخرِ بإصرارٍ؛ ليثبتَ رأيَهُ، ويُبطِلَ كلامَ الآخر، وقد يكون محمودًا؛ إذا كان الغرض سليمًا، واتَّخذ أدلَّةً صحيحة، وقد يكون مذمومًا؛ إذا كان الغرضُ قبيحًا، وبُني على أدلَّةٍ كاذبةٍ أو واهيةٍ، وورد في القرآن على سبيل المدح، وعلى سبيل الذَّمِّ،

(1) البَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 200، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285.

وأمّا الحجاجُ؛ فالمقصود منه ظهورُ الحجَّةِ، وقد تكون داحضةً، وقد تكونُ مبيَّنةً واضحةً، وأمّا المراءُ؛ فهو مذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه مخاصمةٌ في الحقِّ بعد ظهورهِ، وليس كذلك الجدالُ، وأمّا الحوارُ والمُحاوَرَةُ؛ فهو المُرادَّة في الكلام، ففيه معنى الاستدارةِ، ومنه التَّحاوُر[1]، ويُستعملُ كثيرًا في مقاماتٍ تنخفضُ فيه نبرةُ الخصومةِ بين الطَّرفَيْنِ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جدل)، (حجج)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»